

أخلاقيات الطب والصحة

الدكتور

محمد هسيب الخياط

عضو مجامع اللغة العربية

بدمشق وبغداد وعمان والقاهرة وعلبكرة

وأكاديمية نيويورك للعلوم

كبير مستشاري المجلس الإسلامي لمنظمة الصحة العالمية - دمشق - سوريا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الإنسان لا تكتمل إنسانيته ولا تتجلى إنسانيته إلا بقيم.
والقيم منبعها الدين:

يقول الله عز وجل: ﴿دِينًا قِيمًا﴾⁽¹⁾

والدينُ واحد:

يقول سبحانه: ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما
وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾⁽²⁾

وهذه الوصايا تشتمل جميعاً على الهدى والنور:

يقول تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾⁽³⁾

ويقول جلّ شأنه عن سيدنا المسيح عليه الصلاة والسلام: ﴿وآتيناها الإنجيل فيه
هدى ونور﴾⁽⁴⁾

فالاعتباس من أحد هذه الأنوار اقتباسٌ منها جميعاً.

ومكانة الإنسان انطلاقاً من هذه القيم تحددها المبادئ التالية:

(1)
(2)
(3)
(4)

المبدأ الأول: الإنسان مكرم: «ولقد كرّمنا بني آدم»⁽⁵⁾، بغضّ النظر عن لونه وجنسه ومعتقده. ويقتضي تكريمه هذا المحافظة عليه في صحة تامة ومعافاة كاملة، كما يقتضي تكريمه احترام شخصيته، واحترام خصوصياته وأسراره، واحترام حقه في الحصول على جميع المعلومات التي تتعلق بأي إجراء سوف يتعرض له، واحترام حقه في كونه هو وحده صاحب القرار في ما يتعلق بشؤونه الصحيّة، مادام ذلك في إطار هذه القيم.

المبدأ الثاني: الحياة حقّ لكل إنسان، وهي مقدّسة محترمة مدافع عنها. وقيمة النفس البشرية الواحدة تعدل قيمة البشر جميعاً⁽⁶⁾. والاعتداء على حياة أيّ نفس بشرية، ولو كانت جنيماً أو شيخاً أو معوقاً... على البشر جميعاً⁽⁷⁾.

علماً بأن هذا الإحياء، في مفهوم الإسلام، ليس مقصوراً على الإحياء البدني، بل يتعداه إلى الإحياء النفسي والروحي والاجتماعي.

المبدأ الثالث: العدل. قيمة جوهرية في نظر الدين لأنه غاية أساسية من غايات إرسال الرُّسل:

«لقد أرسلنا رُسُلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»⁽⁸⁾.

وقد أمر الله الناس بها أمراً عاماً:

«إن الله يأمر بالعدل»⁽⁹⁾؛

«أمر ربي بالقسط»⁽¹⁰⁾؛

«اعدلوا هو أقرب للتقوى»⁽¹¹⁾؛

«أقسطوا إن الله يحب المقسطين»⁽¹²⁾.

(5)

(6) يقول الله عز وجل: «ومن أحيها فكأنما أحيانا جميعاً»

(7) «من قتل نفساً - بغير نفس أو فساد في الأرض - فكأنما قتل الناس جميعاً»

(8) [الحديد: 25]

(9) [النحل: 90]

(10) [الأعراف: 29]

(11) [المائدة: 8]

(12) [الحجرات: 9]

من كل ما يمكن أن يُخِلَّ بالموقف العادل:

﴿فلا تتَّبِعُوا الهوى أن تعدلوا﴾⁽¹³⁾؛

﴿ولا يجرمَنَّكم [يحملنَّكم] شَنَّانُ قومٍ على أن لا تعدلوا﴾⁽¹⁴⁾.

والعدل في اللغة التي نزل بها القرآن يتضمَّن معنى المساواة أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿أو عدلُ ذلك صياماً﴾⁽¹⁵⁾، أي ما يساوي ذلك صياماً؛ وقد وردت الإشارة إلى ذلك في الصحيفة (دستور المدينة المنورة) بما يدل على المعاملة بالمساواة والعدل لجميع المنتمين إلى المجتمع الإسلامي، مسلمين كانوا أو غير مسلمين:

« .. وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والإسوة

غير مظلومين ولا متناصر عليهم.. »

والإسوة هي المساواة: تقول العرب: «هو إسوتك أي أنت مثله وهو مثلك».

فمن الأمور التي لا جدال فيها ضرورة تحقيق العدالة equity والمساواة equality في تقديم الرعاية الصحية، على الصعيد الفردي والمجتمعي والحكومي. والمقصود بذلك المساواة قدر الإمكان في توزيع الموارد الصحية على أفراد المجتمع، وفي إبتائهم الرعاية الوقائية والعلاجية، من دون أدنى تمييز بينهم بسبب الجنس أو العرق أو العقيدة أو الانتماء السياسي أو بسبب أي اعتبار اجتماعي أو قضائي أو غير ذلك من الأسباب. وهذا هو ما يعبر عنه في وقتنا الحاضر، الشعار المشهور لمنظمة الصحة العالمية: «تحقيق الصحة للجميع».

المبدأ الرابع: قيمة من القيم الجوهرية التي أمر الله عزّ وجلّ بها بقوله: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾⁽¹⁶⁾. ولفظة الإحسان في المفهوم الإسلامي تتضمَّن مجموعة من المعاني في وقت واحد. فهي تتضمَّن أولاً معنى «الجودة» quality، فالحسن هو الجيد، والجودة مطلوبة في كل شيء.. فالنبي ﷺ يقول: «إن الله كتب

[13] [النساء: 135]

[14] [المائدة: 8]

[15] [المائدة: 95]

[16] [النحل: 90]

الإحسان على كل شيء»⁽¹⁷⁾. ومن هنا ينبُغ مفهوم ضمان الجودة في تقديم الرعاية الصحية.

ولكن كلمة الإحسان تتضمن أيضاً تلك اللمسة الرفيعة الحانية التي افتقدناها أو كدنا نفتقدها في ممارسة الطب الحديث.. تتضمن نفسية العطاء حيث يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه بل ويؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة.

ويتضمن الإحسان كذلك صحة الضمير ومراقبة الله عز وجل في كل تصرف وسلوك كما يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»⁽¹⁸⁾.

المبدأ الخامس: لا ضرر ولا ضرار⁽¹⁹⁾، وهذا المبدأ نصٌ حديث شريف صحيح جامع، يُراد به عدم جواز الإضرار بالنفس، أو الإضرار بالغير، أو الإضرار بالمجتمع، بأي شكل من الأشكال. ولا تخفى أهمية هذا المبدأ في المجال الصحي، ولاسيما من حيث عدم جواز إقدام الطبيب أو غيره من أرباب المهن الصحية، على تعريض المريض إلى أي إجراء تشخيصي أو علاجي يكون من شأنه تعريضه إلى الضرر أو الخطر.

* * * *

وقد تم تطبيق هذه المبادئ منذ صدر هذه الحضارة التي ننتمي إليها ونعتز بها. وفي ما يلي مثالان أو ثلاثة:

(أ) للمرضى حقُّ الرعاية على المجتمع ممثلاً في الدولة. ومن الأمثلة على ذلك: «أن عمر رضي الله عنه مرَّ عند مقدِّمة الجابية من أرض دمشق على قوم lepers من النصارى، فأمر أن يُعطوا من الصدقات [الزكاة]، وأن يُجرى عليهم القوت»⁽²⁰⁾.

(ب) للطفل – أي طفل – حقُّ الرعاية على المجتمع ممثلاً في الدولة؛ ومثال ذلك: «أن رضي الله عنه كان يفرض للمنفوس [الوليد] مئة درهم، فإذا ترعرع بلغ

(17)

(18) متفق عليه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

(19)

(20) البلاذري في (فتوح البلدان)

به مئتي درهم، فإذا بلغ زاده... وكان إذا أتى باللقيط فرض له مئة درهم، وفرض له رزقاً يأخذه ولئيه كل شهر بما يصلحه، ثم ينقله من سنة إلى سنة، وكان يوصي بهم خيراً ويجعل نفقتهم ورضاعهم من بيت المال»⁽²¹⁾.

(ج) للضعيف والمعوق والمسن حقُّ الرعاية على المجتمع ممثلاً في الدولة؛ كما ورد في عقد الذمة بين خالد بن الوليد رضي الله عنه وبين أهل الحيرة: « وجعلتُ لهم: أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدَّقون عليه: (1) طرحت جزيته [يعني أعني من الضرائب]، و(2) عيلاً من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام [أي في الدولة الإسلامية]»⁽²²⁾.

ويُتَّضح من هذه الأمثلة أن الدولة الإسلامية تعتبر حق الصحة هذا حقاً «للإنسان»، دون تمييز بسبب اللون أو الجنس أو الدين، وأن رعاية الدولة الإسلامية للإنسان تبدأ منذ الولادة بتأمين الرضاع الصحي، وتستمر حتى الشيخوخة بتأمين ما يكفل العيش الصحي، وأنها بين هذا وذاك لا تغادر مريضاً أو عاجزاً أو مقعداً أو مصاباً إلا غمرته بالرعاية اللازمة.

ومن أجل ذلك وُضعت للطب منذ عهد الرسالة، ضوابطه الأخلاقية التي تحكم سلوكيات الأطباء.

فالنبي ﷺ يقول: «من تطبَّب ولم يكن بالطب معروفاً، فأصاب نفساً فما دونها فهو ضامن»⁽²³⁾.

ونظام «الحسبة» الذي هو من عبقریات ما ابتكرته هذه الأمة، هو نظام «ضمان الجودة» بمعناه الواسع الشامل الكامل؛ وقد بدأ تطبيقه منذ عهد الخلافة الراشدة، بل إن أوَّل محتسب في الإسلام كان سيدة اسمها الشَّفاء بنت عبد الله، ولأها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه السوق. ثم تَوَاصَلَ نظام الحسبة اكتمالاً واتساعاً؛ وكان من أهم وظائف المحتسبين مراقبة الأطباء؛ وتحري انضباطهم في سلوكياتهم والتزامهم للخلق الفاضل الكريم.

(21)

(22) ذكره الإمام أبو يوسف في كتاب «الخراج»

(23) رواه أبو نُعَيْمٍ

ولا تكاد ترى كتاباً في الطب من كُتُب أطباء الحضارة العربية الإسلامية إلا مُستَفْتَحاً بأخلاقيات هذه المهنة الشريفة. مثال ذلك ما أورده صلاح الدين بن يوسف الكحال الحموي⁽²⁴⁾، قبل سبعة قرون، يوصي كل تلميذ من تلاميذه يأخذ عنه مهنة الطب: «... واعلم هذه الصناعة [المهنة] منحة من الله تعالى، يعطيها لمستحقها؛ لأنه يصير واسطة بين المريض وبين الحق سبحانه وتعالى في طلب العافية له، حتى تجري على يديه، فتحصل له الحرمة الجزيلة من الناس، ويمثل عندهم، ويشار إليه في صناعته، إليه فيما يعتمده، وفي الآخرة الأجر والمجازاة من رب العالمين، لأن النفع المتعدي لخلق الله عظيم، خصوصاً للفقراء العاجزين، مع ما يحصل لنفسك من كمال الأخلاق، وهو خلق الكرم والرحمة، فيجب عليك حينئذ أن تلبس ثوب الطهارة والعفة، والنقاء، والرافة، ومراقبة الله تعالى، وخاصة في عبورك على حريم الناس، كتوماً على أسرارهم... محبباً للخير والدين، مكبباً على الاشتغال في العلوم، تاركاً للشهوات البدنية...، معاشراً للعلماء، مواظباً للمرضى، حريصاً على مداواتهم، متحياً في جلب العافية إليهم. وإن أمكنك أن تؤثر الضعفاء من مالك فافعل»⁽²⁵⁾.

بل لقد أفرد بعض أطبائنا الكبار كتباً خاصة بأخلاقيات المهنة، كالرازي الذي ألف قبل ألف عام كتاباً خاصاً أسماه «أخلاق الطبيب»، في ما يلي نبذة منها:

«... ينبغي للطبيب أن يكون رفيقاً بالناس، حافظاً لغيبتهم، كتوماً لأسرارهم... فإنه ربما يكون ببعض الناس من المرض ما يكتمه عن أخص الناس به، مثل أبيه وأمه وولده، وإنما يكتمونه خواصهم ويفشونه إلى الطبيب ضرورة. وإذا عالج من نسائه أو جواريه [الجارية: الفتاة girl] أو غلمانها [الغلام: الفتى boy] أحداً، فيجب أن يحفظ طرفه ولا يجاوز موضع العلة..»

«ويتكلم الطبيب في علاجه على الله تعالى، ويتوقع البرء منه، ولا يحسب قوته وعمله، ويعتمد في كل أموره عليه.»

* * * *

(24) الكحال طبيب العيون

(25) صلاح الدين بن يوسف الكحال الحموي في كتابه (نور العيون وجامع الفنون) وهو كتاب في طب العين.

وبعدُ فإن التطوّرات السريعة التي حدثت في العالم في القرنين الأخيرين ولاسيّما في العقود الأخيرة من القرن العشرين، قد استطاعت أن توهن العلاقة الإنسانية بين الطبيب والمريض، وأصبح الطبيب أو غيره من أرباب المهن الصحية – في لهاته وراء الأمور المادية البحتة – ينسى أنه يتعامل أولاً وقبل كل شيء مع إنسان!

صار الإنسان مجرد رقم ...

مجرد آلة تحتاج إلى صيانة أو إصلاح ..

مجرد شيء ..

ثم طرأت هذه القفزات الجديدة التي أتى بها التقدّم التكنولوجي المذهل في ركابه، وكان طبيعياً أن يستفيد منها الطب والأطباء ..

منها زرع الأعضاء؛

ومنها البحوث التي تُجرى على الإنسان؛

ومنها الهندسة الوراثية؛

ومنها معالجة العقم بهذه الوسائل المبتدعة؛

ومنها أجهزة الإنعاش التي تحافظ على المرء – في حياةٍ كحياة النبات – سنين عدداً ..

وهذا كلّه قليلٌ من كثير!

وليس ما تجلبه هذه الأمور في ركابها من قضايا، بل معضلات أخلاقية، في بعض الأحيان:

هل يحق لنا أن نأخذ عضواً من أعضاء الحي؟

أن نشترّيه؟

أن نجبره على التخلّي عن عضوٍ منه؟

أن نأخذ ما نشاء من أعضاء الميت؟

ثم متى نعتبر الإنسان ميتاً؟

هل عندما تتوقف أنفاسه أم عندما يَنْثَلُّ جذع الدماغ فيه؟

*

هل لنا أن نجري أيّ بحث على الإنسان دون استشارته أو إعلامه بكل تفاصيل ما قد يتعرّض إليه؟

هل لنا أن نجري بحوثاً على المرأة الحامل؟

على الأجنة؟

على أفراد القبيلة إذا وافق شيخ القبيلة؟

*

هذه الهندسة الوراثية أين تقف آفاقها؟

هل نبيحها لمن يشاء دون ضابط أو وازع أو رادع أو رقيب؟

هل نبيح بعضها ونحظر بعضاً؟ وما الذي نحظره.

*

ما موقفنا من الإخصاب الاصطناعي؟

من أطفال الأنابيب؟

من الرحم الظنر؟

من اختلاط الأنساب؟

*

هل للطبيب الذي أقسم على المحافظة على الحياة أن يساهم في إنهاء الحياة؟

هل له أن يساعد مريضه على الانتحار تخلّصاً من مرض لا يُرَجَى منه شفاء؟

هل نبيح هذا النوع من القتل بحجة أننا نسميه قتل الرحمة mercy killing؟

هل نوقف أجهزة الإنعاش إذا كانت تطيل أمد حياة لا جدوى منها؟ وهل يندرج ذلك في مسمى قتل الرحمة أم أنه ليس قتلاً ولا حَرَجَ فيه؟

*

ما هو موقفنا من مريض الإيدز؟

هل نتخلّى عنه.. « أم «نكفُ عليه ضيَعته ونحوطه من ورائه» و «نفرِّج عنه كرباتِه» كما أمر النبي ﷺ؟

هل نقترَب منه؟ وإلى أيّ مدى نقترَب؟

هل نخبر زوجه أم لا؟

هل نوصيه بمواصلة العلاقة الزوجية العادية أم لا؟

ثم بالمقابل هل نضفي عليه من الامتيازات والحقوق ما لا نضفيه على مريض السل أو مريض الملاريا أو مريض الطاعون؟

* * * *

هذه القضايا وأمثالها أخذت تعود بالناس حتى في الغرب إلى جادة الصواب.

أخذت تنبّهم إلى جسامة المشكلة، وإلى ضرورة المبادرة إلى اتخاذ إجراء فوري، قبل أن تستفحل الأمور ويتسع الخرقُ على الراقع.

ومن أجل ذلك تنادى المخلصون في جميع أنحاء العالم، إلى عقد الملتقيات والندوات والمؤتمرات للبحث في هذه الأمور، وكان لمنظمة الصحة العالمية دور، ولليونسكو دور، ولمجلس المنظمات الدولية للعلوم الطبية CIOMS دور. ولعل من أهم هذه الأدوار دور المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، التي عَقَدَتْ على مدى ربع قرن عديداً من المؤتمرات التي تجمع بين الأطباء والفقهاء، أصدرت عديداً من الكتب والمنشورات التي تشتمل على مداورات هذه المؤتمرات وتوصيات هذه الندوات.

* * * *

إن علينا أن نفعل شيئاً: كلٌّ في إطار وسعته، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

والخطوة الأولى أن نجمع حصيلة جميع هذه المؤتمرات والدراسات والبحوث التي تضم التفاصيل التطبيقية لهذه المبادئ الأخلاقية العظيمة، ونصنّفها على شكل دستور لأخلاقيات المهن الطبية وسائر المهن الصحية، تكون بعد تبنيها رسمياً دليلاً يتهدى به الطبيب في ممارسته ويتحاكم إليها أصحاب الحقوق من الأطباء والمرضى والمؤسسات المجتمعية.

ثم علينا أن نبدأ من البداية: من كليات الطب وسائر العلوم الصحية؛

نجعل من أخلاقيات الطب مقررّاً رئيسياً من مقرّرات هذه الكليات والمعاهد، يتلقون فيها مجدداً هذه المبادئ السامية، ويتشربون هذه القيم العالية.

وعلىنا في مؤسساتنا الطبية ومراكزنا الصحية وعياداتنا أن نلتزم بهذه المبادئ.

وعلى «المحتسبين» الجدد في مؤسسات القطاع الصحي ونقابات المهن الصحية أن يتحقّقوا من السلوك الكريم، ويتأكّدوا من هذا الالتزام القويم.

* * * *